

الكارمية

الساطر بصبي عبر الليل

يبدو أن الوقت قد حان للعمل على متابعة التاريخ الاقتصادي العربي ، والتعرف على الدور الذي لعبه العرب في هذا المضمار ، بعد أن انتقلت إلى أيديهم هذه التجارة ، التي عرفت باسم عام هو « الكارم » وصار رجاله يعرفون بالكارمية كما أنه من الضروري أيضاً ، القيام بمحاولة الكشف عن العلاقات ، التي قامت بين العرب وبين المشتغلين بالتجارة ، في حوض المحيط الهندي الذي كان يحتل مركزاً وسط في التجارة العالمية . والواضح أن التجارة تخرج من بلدان على مستوى حضاري ، وتنتقل إلى من يشتريها أو يقايض عليها . فلماذا نجد أن المحيط الهندي ، قد كان السوق التجاري الكبير الذي كانت تتجمع في موانيه البضاعة من أقطار الشرق الأقصى والهند وغيرها . وأخذت هذه للرحلة تنتقل رويداً رويداً نحو الشمال حتى تم انتقالها إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وكان طبيعياً أن يتخذ العاملون في هذه التجارة مراكز لهم على مقربة من هذا البحر . ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ، وأخذوا منها موطناً لهم في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وكانت مرحلتهم هذه نهاية لنشاط واسع المدى ، عبر قرون بعيدة العور ، وانتقلت هذه التجارة وزعامتها إلى الغرب منذ القرن الخامس عشر . وكانت بداية العرب في التجارة العالمية ، حلقة مكملة لما بدأه العرب بما أدخلوه من تحسينات في التنظيمات التجارية بحكم الخبرة والتجربة وتطور الظروف .

ومرحلة انتقال الزعامة التجارية إلى الغرب وظروفها لأمر جدير بالبحث والدراسة للتعرف على أصوله والعمل على توضيح أسسه ، بمقارنتها مع ما عمل به الغرب ، والاستعانة في هذه الدراسة بمجموعات وثائق الجيزة التي نقلت من مصر القديمة (جنوب القاهرة) في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي وأن عدداً كبيراً منها مازال قيد الدراسة .

والكارمية الذين عرفوا بهذا الاسم هم فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى في التوابل وما إليها من بهار وغيره من البضاعة . ويرجع احتكار هذه التجارة بيد جماعات من كبار المشتغلين بهذه التجارة إلى سيد رئيسي

وهو أنه ، بالنسبة للظروف التي كانت قائمة في ذلك الماضي السعيق ، لم يكن من اليسير حصول التاجر الصغير على بضاعته إلا عن يد جماعة لها رأس مال كبير ، وتنظيم وسائل النقل وما إليها وتعرض ما تنقله في الأسواق الكبرى في مصر وغيرها حيث كانت نعمد الزايدات ومن ثم تنتقل إلى يد تجار نصف الجملة ومنهم إلى التجار الصغار في مصر وغيرها كما كانت تنتقل أيضاً إلى التجار والوكلاء من العرب الذين يحضرون لشراء هذه البضاعة لتزويد الأسواق الأوروبية بم حاجتها . وكانت الرغبة في السيطرة على هذه التجارة التي كانت بين العرب من أول الدوافع ، إلى قيام البرتغال بكشف الطريق حول أفريقيا ، إلى المحيط الهندي ، منذ نهاية القرن الخامس عشر .

والواضح أن التجارة تتطور مع تقدم الحضارات ، ونشاط العاملين بها ، فالعرب قد انتشروا بعد الإسلام ، في الموانئ المطلة على المحيط الهندي ، وتغلغلوا في داخل القارة الإفريقية للعمل التجاري ، وإنشاء الشبكات العديدة لتجارة القوافل ، سواء بالنقل المائي أو على الدواب ، كما استخدم ، في عدد من المناطق ، التي لا تصلح فيها عمليات النقل بالدواب والسفن ، الإنسان للنقل ، وحددت للإنسان مناطق معينة يعمل فيما بينها ، وكان هؤلاء يقدمون عن طريق زعيم . يجمع هؤلاء من السلاطين المحليين ، الذين يتقاضون أجورهم من زعيم العمل ، وكان بين هؤلاء ، أسرى الحروب ، التي يشنها الزعماء على بعضهم البعض . تجدد النشاط العربي في السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي بخاصة ، ووصلوا إلى الشرق الأقصى ، وازداد النشاط بعد أن كان في الفترة السابقة ، لظهور الإسلام ، في حالة أقرب إلى الكساد التام لآكثر من سبب .

ويهمنا بادئ ذي بدء ، الكشف عن أصل اللفظ « كارم » الذي ورد في المراجع ، بإضافة الألف واللام (أداة التعريف) ، فكان يقال ، الكارم والكارمي والكارمية ، وهذا يؤكد أنه لفظ عام ، ويؤكد هذا ما ذكره القلقشندي ، كما سنبينه فيما بعد — إن هذا اللفظ قد وجد في الدواوين ، على هذا النحو ، ولا معنى به في العربية ، وبهذا أضعف الرواية التي ترجمه إلى « الكاتم » ، على اعتبار القائمين لهذه التجارة كانوا من بلاد الكاتم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال غير صحيح إطلاقاً .

وكان من الضروري أيضاً ، أن نبعث عن أصول هذه الفئحة التجارية . الأمر

الذى نجده وثيق الاتصال بمصدر اللفظ ، فالقصة قد وجدت ، فى صورة من الصور ، ثم تطورت ، مع الزمن ، مع التقدم الحضارى ، وصار هذا الاسم ، هو ما تعرف به ، وتوارثه من جاء بعدهم ، أو من تحولت إليه السيطرة التجارية ، فى أسواق الهند وغيرها . وجاء فى هامش الصفحة ٨٩٩ من كتاب السلوك للمقرئى ما يفيد أن الكارمية كافى معظمهم من أهل بلد الكانم الإسلامية^(١) ، ويفترض ليمان أن هذا اللفظ قد أخذ عن متاجرهم ، إذ وجد أن كلمة Wararima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى الجهان وهو من التوابل التى اشتغلوا بها^(٢) .

ويقول ابن ماجد فى كتابه ، أن طريق استعجاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم^(٣) ويشير الإدريسى أن هؤلاء التجار كانوا ينقلون من حوض تشاد الشب إلى مصر^(٤) .

ومما نوضح بعاليه نستطيع أن نصل إلى عدة تقاط من أهمها أن لفظ « كارم » هو اسم عام ، وأنه لم يكن إسماع عربياً ، ثانياً أن هؤلاء الكارمية قد جاءوا إلى مصر واتخذوا منها مركزاً لأعمالهم فى عام ١١٨١ م . أما ما جاء عن الصلات التجارية بين مصر والكانم فليس بالأمر ذى الأهمية فى الموقف الخاص بأصول اللفظ وتطوره ونحاول أن نستعين بأوراق الجنيزة ، ونجد فى هذه الأوراق ، أو بمعنى أدق فيما نشر منها حتى الآن أن التجارة « الكارمية » قد كانوا يمارسون تجارتهم فى المحيط الهندى وأنهم قد اتخذوا لهم مراكز رئيسية فى أمكنة تجارية هامة ، فمنها ما كان فى كوجزرات ومنها ما كان فى الخليج العربى مثل سيراف ، كما كانت لهم وكالات فى مختلف الموانئ ، كما كانت جماعات منهم منتشرة فى مختلف المدن الكبيرة مثل بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها .

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك القسم الأول نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) الدكتور صبغى لبيب فى مقاله « التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » الذى نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الرابع — العدد الثانى لسنة ١٩٥٢ ص ٦ وما بعدها .

(٣) دكتور صبغى لبيب فى مقاله آف الذكر .

(٤) الإدريسى : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ٢٢ و ٤٠/٣٩ نقلت عن مقال الدكتور صبغى لبيب المشار إليه أعلاه .

وبعد أن تجمعت لدينا المعلومات الكثيرة عن النشاط الكارمى من القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده ، بما فى ذلك الافتراضات فى محاولة التعرف على أصولهم تنتقل إلى عرض لما كانت عليه الحالة التجارية فى بحر الهند (المحيط الهندى) منذ القدم ، فى صورة موجزة ، وقد يبدأ هذا بما قامت به الملكة حتشبسوت التى حكمت مصر فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، بمنع الوسطاء التجاريين فى الحصول على التوابل والمواد العطرية . وأرسلت السفن المصرية إلى بلاد بنت لشراء هذه الحاجيات ، وكانت لازمة بخاصة فى خدمة المعابد ، من أما كن عرضها ، وفى هذا دليل على قيام نشاط تجارى على مستوى مناسب — فى ذلك العهد السحيق .

وقد لا يعوزنا الموقف الحالى إلى الحوض فى التطورات التجارية من الألف الثالثة قبل الميلاد التى أخذ بها كنقطة بعيدة فى القدم لبداية للنشاط التجارى بخاصة ما يتعلق معه بمصر .

ويتبين لنا بعد هذا العرض أن « الكارمية » قد نشأت أولاً فى المحيط الهندى أو على الشاطئ الغربى للهند ، وإذا اقتطنا اللفظ قسمين لوجدناه يتكون من « كار » فى المقطع الاول ثم « يم » فى المقطع الثانى أى « كاريم » — وكار معناه الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة إلخ إلخ ، ويم معناه « المحيط أو البحر البعيد الشواطىء أو النهر الكبير ، وبهذا نخرج إلى النتيجة بتفسير هذا اللفظ إلى « كاريم » وسقط الياء وصار « كارم » أى « حرفة التجارة فى البحار » وهذا فيما نعتقد لفظ يرجع فى أصوله إلى لغة هندية على الجانب الغربى منها ونجد أيضاً أن لفظى كار ويم موجودان فى صورة أو أخرى فى المصرية القديمة وأن لفظ « كار » مازال متداولاً حتى اليوم بمعنى الحرفة أو العمل « كارك أيه » .

* * *

وفى ختام هذه الكلمة القصيرة عن الكارمية فى العهد السابق لانتقالهم إلى مصر فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى نجد لزاماً علينا التنويه والإشادة بالبحث القيم الذى كتبه الدكتور صبحى لبيب الذى جمع فيه الشاردة والواردة عن نشاطات

الكارمية في الفترة التي تعرض لها . ونعتقد أن مجال البحث مازال واسعاً أمام الباحثين لتحقيق الجوانب المتعددة للموضوع بخاصة بعد ظهور دراسات من وثائق الجنيزة . والله المستعان

« مراجع البحث »

- GOITEIN, S.D. : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966.
- WIET, GASTON : Les Marchands d'Epices sous les Sultans Mamlouks, Editions des "Cahiers d'Histoire Egyptienne", Le Caire, 1955.